المشهد الرابع

عن الثقافة والمثقفين أتحدث

(نخبة تدعى الثقافة وجماهير مثقفة بالفعل).

الثقافة من الكلمات التى ظهرت فى مرآة الثورة بوضوح، ولا يجب أن تمر مرور الكرام، وكأنه مشهد عادى طبيعى أو أن كلمة الثقافة وحدها كلمة لها بريق خاطف، فمن يريد الوجاهة العلمية أو الاجتماعية أو غيرها، فعليه أن يلقب نفسه بلقب مثقف، والثقافة بهذا البريق تعتبر قوة تقول لا، ولا ليس هذا هو الفهم الصحيح كما ظهر فى مرآة الثورة.

تعالَ معى أيها القارىء، قبل الولوج الى هذا الموضوع، نضع بعض المقدمات العامة ننطلق منها فى الحديث عن الثقافة.

أولا: بعيدا عن التعريفات الأكاديمية المسطرة وأحيانا المتشدقة نقول:

إن الثقافة فى أبسط تعريفاتها هى ما يتبقى فى عقل ووجدان الإنسان بعد عملية التعلم، وليس شرط التعليم الأكاديمى .

وطبقا لهذا التعريف فكل إنسان مهما كان درجة علمه وتعلمه أو حتى أميته الأبجدية لديه ثقافة خاصة به وبمجتمعه ومحيطه الاجتماعى.

ثانيا: الثقافة ليست هى الإنتاج الفنى أو الأدبى بكل أشكالها، وهى ليست غاية فى حد ذاتها لتصبح مجرد تسلية وترفيه.

ثالثا: تصنيف الناس على أساس الثقافة بالمعنى التقليدى لها لا يمثل عدلا، فإذا وضعنا نسبة مئوية على أساس معيار الثقافة الأكاديمى فالمجتمع يصبح (عشرين بالمائة) ٢٠٪ نخبة، و(ثمانين بالمائة) ٨٠٪ جماهير، وهنا تكمن المعضلة.

فالنخبة هى الحاضرة فى وسائل الإعلام كلها، أصحاب الياقات البيضاء بل وأصحاب النفوذ والسلطان، بينما الجماهير مالكة الثقافة الحقيقية غائبة، فربما يتجمل المثقفون، ويخدعون الجماهير لكن الجماهير لا تخدعها أحد؛ فثقافتها صور وخبرات ومشاهد حياتية لا تبحث لها عن تنظير أو قوالب معلبة، والنتائج المنطقية إذن لهذه المقومات تستطيع أن تختزلها فى جدلية واحدة هى (الأصولية – العلمانية)، وهى جدلية تأخذ مسميات متعددة، لكنها تعزف على وتر واحد، فهى جدلية الدولة المدنية أو الدولة الأصولية، أو التراث والتحديد أو غيرها من المسميات، فكل فكر بشرى لا يستند الى

نص مقدس، فالضمير الجمعى يستهجنه فأى ثقافة لا تستند إلى أصل ثابت لدى الجماهير، وهو أصل الحلال والحرام، فالجماهير مُشَكِّلَة للثقافة بأنواعها سواء المكتوبة أو الحرفية أو الشكلية، وربما تقبل عليها، لكن عندما يرى المثقف أنه صاحب رسالة يجد الانتقاض من جانب الجماهير، إما لأنه يتعالى عليهم بمفرداته الملتوية، أو يتعالى عليهم بعدم الإقبال الفعلى .

فالضمير الجمعى وقر فيه أن المثقف متملق للسلطة منافق لها، وأنه يبحث عن بريق ونقطة ضوء لامعه بعيدا عن الجماهير، إياك أن تخدع نفسك وتقول إن للمثقفين دورا هاما فى تغيير المجتمع أو تنوير المجتمع، والدليل وضح تماماً فى مرآة الثورة أن الجماهير وقتما عجز المثقفون عن تنويرهم لسنوات طوال حدث الاستقطاب الدينى فى كل مناحى الحياة، رغم أن هذا دليل ضعف للثقافة ودورها عبر سنوات طويلة، إلا أنه يعطى مؤشرا أن ثقافة الجماهير هى الثقافة الحقيقية، ومن يتصور غير ذلك يخدع نفسهن ولا أعنى هنا أن ثقافة الجماهير هى دراسة المؤثرات أو التراث القديم أو الأمثال الطيبة، كلا بالطبع، إن الجماهير لم تجد فى طريق التنوير إلا

الـكلام أو هكـذا قيـل لهـا.

هـل أعطـى المثقـف نفسـه فرصـة ليسـمع النـاس مـن فـوق منصتـه؟ أم هـى ثقافـة فوقيـة الشـكل التقليـدى؟ إن المنصـة الثقافيـة عليهـا أنـاس متشـدقون أو حالـون، لكنهـم لم يـروا الأوضـاع بشـكل مختلـف، فكـم مـن مـره تمنـت أن يقـوم المثقـف مـن عليائـه ليجلـس وسـط النـاس ويقـول للحضـور مـن يجـد فـى نفسـه رغبـه الصعـود علـى المنصـة ليحـدث النـاس فليفعـل. بالطبـع لم يفعلـوا، وبالطبـع الجماهـير تظـل مسـتهلكة للمسـطح الثقافـى رغـم علمهـا المكتـوم بذلـك كلـه، فالتفافـه كلمـة محوريـة إذا تحدثـت عنهـا تحدثـت عـن كل شـىء، وإذا تحدثـت عـن أى شـيء لابـد لـك مـن ثقافـة فـى موضـوع حديثـك.